صبر الإنسان

من الأدب الروسي المعاصر

بقلم : زيكيو ترجمة : حسين الضباغ

وتلاشت هذه النوبه العابرة من اليأس فى لحظات قليلة جلس يعيدها كثيرى وراح يرنو فى اتجاه المحله ، ترى ماذا يفعل بعد ذلك .

وضعت هذه القصة في بادىء الامر باللغة التشوكشية . وهي لغة لم يكن لها حروف كتابة الا في أواخر عام ١٩٣٢ . والتشوكشيين هم قوم من سكان سيبريا انحدروا من هؤلاء السكان المقيمين في الاسكا والمعروفين باسم الاسكيمو . وقد ولد المؤلف الشاب لهذه القصة في عام ١٩٣١ ، ودرس الادب عن طريق البرنامج السوفيتي الخاص بتدريس اللغات الروسية . وقد تأثر الى حد كبير بالادب الروائي الانجليزي والامريكي الذي كان يقرأه مترجما . وان مواهب ريكيو في فن الكتابة القصصية ، لتبدو واضحة في قصته هذه .

كانت الثلوج تتساقط .. وتحول الثلج من اللون الابيض الناصع ، الى الأصفر القاتم وهو يكسو الارض الا من الرقع الطينية التي تتخلله هنا وهناك وكانت السماء ، زرقاء ، داكنة ، والطقس دافئا . الا أنه في خلال الليل القصير ، برد قليلا ، وازدادت السماء قتامة حتى أشرقت شمس الربيع مرة أخرى . وبعد ثلاثة أو أربعة أيام أخرى ، أو أسبوع على الأكثر ، كانت الشمس ستبقى بلا غروب ، الا اذا كان الغروب مجرد لمسة من الشمس لحافة الأفق ، ثم تعود للشروق مرة أخرى لكي تذيب أشعتها بقايا الثلوج . وهذا يعني أن الصباح سيبقى دائما ، في النهار وفي المساء ، بلا ليل ، حتى نهاية الصيف . وانه لشيء رائع . ففي خلال الربيع ، يستيقظ سكان المحلة مع البكور . اذ لم يكن هناك من يريد النوم ، لأن الواضح أنهم نالوا كفايتهم من النوم خلال أشهر الشتاء ثم كيف يستطيع الصياد الأصيل أن يرقد في الفراش بينما تمرق أسراب البط فوق المحلة رأسا ؟ ولكن ما قيمة البط حينما يقول آنبينير انه سمع زئير الفقمات . ولم يكن آنبينير من الذين يتخيلون الأشياء ، فاذا قال انه سمعها ، فهذا يعني أنه سمعها حقا وأيا كان الأمر ، فليس في هذا ما يثير العجب ، فاذا لم تزأر الفقمات في الربيع ، فمتى تزأر . اذن لقد آن وقت الاستعداد لأولى رحلات صيد الفقمات ، وأولى الرحلات الى البحر .

وبدأت الثلوج في الذوبان ، الا أن الشريط العريض من الجليد على الشاطىء ظل صلبا ، ورغم كثرة الشروخ التي تخللته ، الا أنه ظل كما هو ، وكان البحر في كل يوم يقرض منه أجزاء تحملها الامواج المتتابعة الى الشمال . ولكن المسافة ظلت على أية حال ، طويلة تبلغ خمسة كيلومترات على الأقل ، وربما ستة ، من الشاطىء الى البحر .

ان كثيرا الصياد ليجلس الآن على حافة الجليد ،

والبندقية على ركبتيه ، يحملق أمامه فى انتظار فقمة منهورة وكان وجهه ينم عن الرضى ، لأنه كان بجانبه على الجليد فقمتان قد صادهما فعلا باصابتين فى الرأس . أوه .. ان كنيرى صياد بارع . اذ يكفيه أن تبرز احـــدى الفقمـــات رأسها المستدير بين الأمواج

ان كنيرى ليســـتدفىء بعض الشىء فى الشمس المشرقة بصفاء على حزام الجليد والمحسنة بالدفء الرقيق ومن ثم كان الطقس دافئا ، لطيفا ، شديد الاختلاف عن الشتاء الذى كان على الانسان أن يكمن فيه ـ رغم صقيعه القارس ـ فى انتظار أن تطل احدى الفقمات برأسها من فجوة التهوية . أما الآن ، فانك لتؤثر البقاء على الانصراف .

وكان الوقت قد حان ـ بطبيعة الحال ـ لانصرافه . ذلك لأن رئيس المعســـكر كان قد أخبر كل فرد بأن يكون فى البيدر « القارب » فى الساعة الثامنة صباحا لاصلاح قارب الصيد . ولا شك أن الساعة قد بلغت الثامنة الآن ، أو لعلها قاربتها .

وكان كنيرى قد نهض فى وقت مبكر جدا هذا الصباح ، ولم يره أحد من ثم وهو فى طريقه الى حزام الجليد . وكان قد أزمع أن يمارس الصـــيد قليلا ثم يعـود فى الثامنة ، حسنا .. انه لن يعود قبل التاسعة على أية حال والقارب يمكن ان ينتظر . والساعة التاســـعة مناسبة على كل حال للقيام بعمليات اصلاحه .

وانه لمن العسير على الانسان أن يرد نفسه عن مثل هذا النوع من الصيد ، لاسيما اذا كان موفقا فى يومه كما هو شأنه فى هذا اليوم . وقد شعر كنيرى ، على نحو ما ، أنه واثق من صيد الفقمة الثالثة بسرعة . وبعدها يستطيع أن يعود الى المحلة فورا .

ولكن الفقمة الثالثة ، مع هـــذا ، تأخرت فى الظهور . حسنا .. لينتظر قليلا . ان كنيرى جالس على حقيبة الصيد المصنوعة من جلد الفقمة الناعم ، مستندا بظهره الى جلمود من الجليد القديم . لقد عرف كيف يختار مكانا مريحـــا بحيث يستطيع الجلوس فيه طيلة اليوم دون أن يتململ . ان عليه الا يتململ ، والا يكشف عن نفسه بأقل حركة .. ذلك هو أول بند فى قانون الصيد .

وكان كنيرى ينفذ هذا القـــانون بدقة بالغـــة .. بدقة أفضت به فى النهـــاية الى الوسن بعـــد أن دغدغت حواسه

الشمس المحسنة ، والنسيم الرقيق ، وخرير الأمواج وانسياب الأفكار المتراخية في ذهنه . ولكن رأسه حين سقط على صدره ، جعله يصحو ويقول لنفسه « لقد حان موعد عودتي ، والا فسوف يتحول نعاسي فورا الى استغراق في النوم » .

وتصور نفسه عائدا الى البيت ، ساحبا وراءه غنيمته ، ناعما باستقبال أبنائه له ، لسوف يعطي لكل واحد من أبنائه الأربعة هؤلاء ، عين فقمة ـ المنحة الأثيرة لديهم ـ ولو أن فقمة أخرى أظهرت رأسها لكان لديه من العيون ما يكفي لأفراد الاسرة جميعا .

ولمح على المدى البعيد من البحر ، باخرتين . فقال لنفسه « اذن لقد بدأ موسم الابحار فعلا » وراح يتساءل عن عدد الايام التي تستغرقها البواخر في رحلاتها ، والى أين هي ماضية ، ومن أين هي آتية ، ثم قرر أن ينتظر فترة أخرى حتى يغدو الدخان المتصاعد في مواجهته تماما . وبناء على هذا التقدير فان انتظاره لن يطول أكثر من نصف ساعة أخرى . لسوف يبدأ في العودة الى البيت عندما يستطيع أن يرى الدخان دون أن يدير رأسه . فاذا ظهرت فقمة ثالثة في خلال هذه الفترة ، فعلى الرحب والسعة ، والا فلن يكون الأمر على جانب كبير من السوء ، لأن فقمتين ليستا بالصيد الهين .

وبعد أن استقر رأي كنيري على هذا ، أخذته سنة من النوم . وفي هذه المرة مال رأسه برفق على كتفه ، بدلا من السقوط على صدره . ورأى في المنام أنه يسير بغنيمته في شارع المحلة . وقد جاء عدد كبير من سكانها ـ وبينهم العجوز ماميل ـ لاستقباله . وبعد أن نظر العجوز الى الفقمتين ، الواحدة بعد الأخرى ، قال « ها هو ذا معنى البراعة في الصيد .. لقد أصاب كلا منهما في رأسها دون أن يتلف عينيها » وابتسم كنيري في نومه ، فالمديح دائما شيء جميل ، لاسيما اذا صدر من العجوز ماميل الذي طالما انتقده في الاجتماعات ، وفي صحيفة الحائط باعتباره متلافا كسولا .

أما الآن ، فانه يثني عليه كبطل ، وان عليه أن يعترف في النهاية بأن ماميل رجل منصف حقا ، ولكن كنيري ، من قبيل التواضع ، يغير الموضوع ويسأل عن الوقت .

وقال كنيري وهو لا يزال يحلم « حسنا .. يجب أن أمضي ، لابد أن أحمل هاتين الفقمتين الى البيت ، لأنهم ينتظرونني بالمعسكر في الثامنة .

ويستمر حلمه .. لقد وصل الى البيت ، وراح يعطى عين فقمةللصغير كول ـ كا . ويأخذها أصغر أبنائه ، ويلصقها على وجنته . وتنتفخ وجنته .. وتغدو كبيرة الى حد غير معقول . وتلتمع عين الفقمـــة في وسـط الانتفاخ وتزداد وضوحا بالتدريج . لا .. ليست هذه عين فقمة .. انهـا عين ماميل ان العجوز يرفع عينه اليه ويقول له بحزم : « اذن فقد هربت من الطابور مرة أخرى أثنـــاء انتظارهم لك في المعسكر ، لكى تمضى الى الجليد » ويشعر كنيرى بالخجل ، ويرتعد تحت وطأة نظرات ماميس انه يريد أن يجرى ، ولكنه لا يستطيع . يريد أن يقول أنه لايزال فى الوقت متسع للوصول الى المعسكر ولكن لسانه معقود .

واختفت عين ماميل لحسن الحظ . وان كنيرى الآن فى قارب بالبحـــر ، لقد أوقف المحـرك وتركه يتأرجح على الأمواج برفق ،

ولما استيقظ ، بدا له ، كما حدث فى المرة الأولى ، أنه لم ينم غير لحظة واحدة . وتطلع الى الدخان ، ولكنه لم يجد له أثرا ، ترى أين ذهب ، انه يقينا لم يتم حتى مرت الباخرتان واختفى الدخان وراء الافق . وتثـــاءب كنيرى بعمـق وهو ينهض واقفا ، ثم تمطأ وفرك يديه فى جنبيه ، وشعر بالجو قد برد وكأنما تلاشى الدفء من الشمس ، وانحنى ليربط الفقمتين ، ثم اذا يحس بهذه الأرجحة الخفيفة التى أحس فى حلمه . ولما انتصب واقفا ونظر الى الشاطىء ، أنكمش فى نفسه فزعا . وسقطت الفقمتان من يديه ، لقد وجد نفسه طافيا فى البحر على سطح قطعة جليد ضخمة انفصلت عن الحزام الجليدى وهكذا وجد نفســـه فى وسط مساحات هائلة من الميـــاه ، ومن بعيد جدا بدت الحـــافة المتعرجة للشاطىء الجليدى ، أما المحلة فلم يكن لهـــا أثر على مرمى البصر .

واندفع كنيرى الى حافة الطوف الجليدى وراح يستغيث بأعلى صوته . وبلا كلمات ، وبلا أمل أخذ يلوح بذراعيه فوق رأسه ، ويضرب الجليد بقدميه وهو يزأر كحيوان جريح . ولما أنهكه التعب ، سقط على الجليد والحشرجة الصوتية تند عن حلقه .

وتلاشت هذه النوبة العابرة من اليأس فى لحظات قليلة جلس بعدها كنيرى وراح يزحف فى اتجاه المحلة ، ترى ماذا يفعل بعد ذلك ؟

ولم يستطع رغم كل محاولاته أن يفكر فى شىء . وهكذا

لم يبق أمامه الا الانتظار ، الانتظار حتى يتم انقاذه ، وما عليه الا أن يتجلد أطول مدة ممكنة • ان معه فقمتين وكمية من الطلقات النارية يمكنه بها ان يصيد اثنتى عشرة فقمة أخرى ، أو عشر على الاقل • وهذا يعنى ان لديه طعاما لمدة طويلة أطول مما يستطيع أن يقدر ، لأن طوف الجليد لن يستمر كل هذه المدة •

لا •• انه بالتاكيد لن يموت جوعا ، ولكن الخطر الاكبر يكمن فى أن الطوف الجليدى يتناقص يوما بعد يوم ، ويغدو أرق وأضيق من أن يصلح للبقاء عليه ، وأخيرا سوف يذوب تماما ويختفى ، فاذا لم يتم انقاذ كنيرى قبل ذلك اليوم ، فانه لن يرى زوجته وأبناءه وأصدقاءه • اذا لم ينقذه أحد لطوف الجليد المتماسك ، فسوف يهلك حتما •

وبدأ كنيرى يفكر فى الصيادين الذين حملتهم الى عرض البحر أطواف الجليد • انرين ابن جيموج النقاش ، حمله طوف وهو لا يزال غلاما فى الخامسة عشرة من عمره ، وان كنيرى ليستطيع أن يذكر هذا الحادث بوضوح لأنه اشترك فى عمليات البحث • ولما يئس الجميع من العثور عليه ، اذا به يعود بعـــد عشرة أيام • لقد أعاده الى أهله جمـاعة من الصيادين فى محلة مجاورة كانوا قد عثروا عليه فى حالة ارهاق شديد فوق الجليد •

ويقال أيضا ان ماميل حمله طوف جليدى ذات مرة ، ولكن ذلك كان منذ أمد بعيد ، قبل أن يولد كنيرى • وكان ماميل قد حمل مسافة بعيدة الى شاطىء غريب • ويقال أنه ظل يهيم فى مناطق غريبة مدة سبع سنوات ، ولكنه عاد فى النهاية الى محلته •• نعم •• عاد •

ولكن ماميل كان قد حمل فى الشتاء ، ومن ثم فلا وجه للمقارنة ، ذلك أن طوف الجليد فى الشتاء لا يقل صلاحية عن الطوف الخشـــبى ، أى أن فى مقـدورك أن تطفو عليه شهرا ، وربما شهرين قبل أن يذوب • أما فى الربيع ؟• لقد قالوا ان صيادا حمله جليدى من آنجويما فى ربيع العام قبل السابق ، وانقطعت أخباره بعـد ذلك • ولا شك أن الطوف الجليدى كان صغيرا وذاب بسرعة • وفى مثل هذه الظروف لا يستطيع الانسان أن يبقى طويلا على قيد الحياة فوق طوف جليدى • ان الشمس تسخنه ، والأمواج تؤرجحه فيذوب الى قطع صغيرة كما يحدث للسكر فى قدح شاى •

وان كنيرى ليتمنى أن يدفع أى ثمن لكى يغدو فى تلك اللحظة جالسا فى بيته الى مائدة الطعام وأمامه ابريق ساخن من الشاى ليدفىء يديه بوضعهما عليه ، وليرتشف منه قليلا قليلا مستمتعا باستنشاق شذاه العاطر .

وكان عليه أن يدرك خطورة موقفه منذ الدقيقة الأولى .. منذ اللحظة التى وجد نفسه فوق الطوف الجليدى . وكان كلما فكر فى هذا ، ازداد ادراكا بأن الأمل فى انقاذه ضعيف ـ بل يكاد يبلغ حد المستحيل . وتذكر أبناءه ، وسرعان ما قال لنفسه « انني س أراهم مرة أخرى » ، وأضيفت الى المشاعر الغامضة عما سوف ينتظره ، فكرة الموت . وكان فى اللحظة الاولى قد شعر بخوف وحشى أما الآن فقد انتابه الحزن الذى بلغ أعماق نفسه

ونهض كنيرى ببطء وذهب الى حقيبة الصيد . وكان عليه أن يسير بحذر وببطء حتى يحافظ على كيان هذه القطعة الجليدية الذى تتوقف عليها حياته . وعاد يجلس على حقيبة الصيد وبدأ يفكر . وكانت الشمس قد مالت كثيرا نحو الغروب .

ولمست الشمس الأفق وصنعت طريقا ذهبيا لامعا يمتد من الطوف الجليدى عبر المياه الى حيث يغوص قرصها وراء البحر . وكان النصف الأسفل منها قد غاب وراء الأفق ، ولم تلبث أن اختفت بأكملها وكأنها غربت ، وانطفأ الطريق الذهبى ، وازدادت السماء قتمة . ولكن كنيرى كان يعلم أن الشمس لن تلبث أن تشرق بعد قليل ، وتبدأ فى اذابة الثلوج خلال نصف ساعة .. ولسوف تعود للظهور مرة أخرى الى اليمين قليلا ـ من حيث اختفت .

ولم يكن كنيرى من نوع الرجال الذين يستسلمون للاكتئاب مدة طويلة . انه لم يهتم كثيرا لأن الاحوال بالنسبة اليه لم تتحسن ، وأنه لم يشعر بأنه أسعد حالا من الامس . كل ما فى مقدوره أنه لا يستطيع أن يكتئب طويلا . ان أخطر المواقف وأدعاها لليأس لا يمكنها أن تثير فى نفسه الاكتئاب الا لمدة قصيرة جدا . ان الاحوال قد تبقى كما هى . ولكن الاكتئاب لا يبقى .

والتمس شيئا من العزاء حين وجد الصباح مقيما بعض الشىء . فهذا يعنى أن الخطر فى سرعة ذوبان الطوف الجليدى سيكون أقل مما لو كان الصباح مشرقا .

كان التيار يحمله تدريجيا نحو الشمال .. فيقترب به شيئا شيئا نحو بحر تشيكوتسك . ولكنك لو نظرت بامعان لوجدت أن من الممكن رؤية الشـــاطىء الذى لم يكن سوى خط ضيق باهت اللون يكاد يمتزج بالضباب . وهذا يعنى أن المسافة ليست بعيدة على جماعة الانقاذ ، اذ أن فى مقدورهم قطعها بسرعة فى زورقهم البخارى ومعهم مناظيرهم المقربة .

والشىء التالى الذى فعله كنيرى ، هو قيامه بجولة فحص وتفتيش فى جوانب الجزء الباقى معه من الطوف الجليدى . وبعد أن فحص بدقة كل شرخ . وجد أنها شروخ بسيطة عند الاطراف . وفى أثناء الليل لم ينفصل عن الطوف غير قطعة جليدية لا تزيد فى الحجم عن رأس فقمة . وقد ابتعدت الآن نحو ثلاثين كيلومترا .

وكانت مساحة الطوف الجليدى لا تقل عن مساحة بيت كبـــير . وكانت به نتوءات مرتفعـــة فى خطوط مستقيمة تقريبا ، يبلغ ارتفاع بعضها قامة رجل ، وبعضها الآخر أقل ارتفاعا . وكان ثمة بركة صغيرة قد تكونت من الماء العذب المذاب من الجليد بين النتوئين الأوســـطين . وكان ثمـــة أطواف جليدية كثيرة قد انفصلت عن الشـــاطىء الجليدى وأخذت تطفو على ســـطح البحر وعلى مســـافات بعيدة من بعضها البعض .

ونقل كنيرى متاعه الى وسط الطوف على سبيل المزيد من الحـــذر والاحتيـــاط . وكان المتـــاع يتكون من بندقيته والفقمتين وحقيبة الصيد ، وهراوة الصياد والخطاف الذى يلقى به الى الماء ليسحب الفقمة المصابة . وبعد ذلك سلخ الفقمتين وقطعهما ووضع لحمهما فى أسفل أحد النتوءات . وتناول افطاره من كبد الفقمة ورغم أنه أكلها نيئة ، الا أن هذا لم يضـــايقه كثيرا . لقد كانت أسنانه قوية من نوع الاســـنان التى تنفذ فى جلد الفقمة . فما بالك بلحمها ؟ ورغم أن مذاقها كان غريبا بعض الشىء الا أن جوعه الشديد عندئذ جعل كل شىء يأكله يبدو لذيذا .

واختتم طعـــامه بعـــين الفقمة ، باردة ملحـــة ، بعد أن غسلهـــا فى ماء البركة وجمع كل الثـــلوج المتبقية وصنع منها جدارا فى الجانب الجنوبى من البركة . وبذلك اطمأن الى الماء لن يتجدر حتى لو صفعت السماء ، لانه سيكون فى ظل الجدار . وأهم من هذا فانه يضمن بذلك ألا يضيع الثلج فى

البحر عند الذوبان ، بل سيجتمع فى البركة ويزيد مؤونته من الماء العذب ، ولفرط سروره بهذه الفكرة جمع كنيرى المزيد من الثلوج الصغراء المتناثرة هنا وهناك ليزيد من ارتفاع هذا الجدار الاوسط ٠

وماذا عليه أن يفعل بعد ذلك ؟ ان كنيرى يجلس على حقيبة الصيد الجلدية ويشغل نفسه بتنظيف بندقيته ألم يكن من الافضل لو أنه أطلق بضع رصاصات بالامس عندما اكتشف الكارثة ٠ لا ٠٠ ما كان ثمة أحد ليلاحظ ما حدث . فقد كان هناك صيادون كثيرون يطلقون البنادق بالقرب من المحلة ، وما كان اطلاق الرصاص على الفقمات ليثير انتباه أحد ٠ وعلى أية حال ، هل يفيد الندم على شيء لم يفعله بالامس ! ليس هناك مايستطيع أن يفعله الآن ٠ بل ان كنيرى ليبتسم قليلا الآن وهو يذكر كيف زأر وضرب الجليد بقدميه ٠ ومن حسن حظه أن أحدا لم يره ٠

وما الفرق ، فى المدى الطويل ، بين قيام أحد بالبحث عنه بالامس أو اليوم ٠ ان الامر لا يعنى أكثر من البقاء بضع ساعات أطول على الطوف الجليدى ٠ وان لديه اللحم والماء العذب ، ومن المحتمل أن يظل الطوف متماسكا أسبوعا ٠ ومن ثم فسوف يكون لديه ، على الاقل ، شيء يتحدث عنه عندما يعود الى المحلة ٠

ان البحث عنه لا بد قد بدأ الآن ، ومن ثم فليس هناك ما يثير قلقه الى حد كبير ٠ ولكن ماذا لو ان البحث لم يبدأ ، ماذا لو أنهم لن يقوموا بأى بحث عنه ؟ ان زوجته سوف تهرع بطبيعة الحال الى قاميش رئيس مجلس ادارة المزرعة الجماعية ٠ ولكن ماذا لو أن قاميش رفض أن يرسل أى فريق من الرجال للبحث عنه ؟ هل فقدت زوجك كنيرى ، أتظنين أنه قد يكون حمل الى البحر على طوف جليدى ، حسنا ، وماذا لو حدث هذا ؟ انه يستحق ما يجرى عليه ٠ وأنه لخير لنا ولك أن نعيش بدونه ٠ مافائدة هذا الكسول ؟ انني ما كنت لاخذ رجالا عاملين من أعمالهم لاجعلهم يغامرون بحياتهم من أجله ٠ بل ما كنت لأغامر بالقارب أيضا ٠ انه لا يزال فى البحر كثير من الثلوج العائمة ، فماذا أفعل لو اصطدم القارب بها وتحطم ؟ لا ، انني فى حاجة الى جميع رجالى هنا فى المزرعة الجماعية ٠

ولو كان ماميل ـ عضو مجلس الادارة ـ بجانب قاميش

وفى مرات أخرى كان يذهب الى المخفر القطبى ليلعب الشطرنج مع مندوب الاسعاف فيه ·

وبمناسبة الشطرنج ان كنيرى هو أحسن لاعب فى مزرعة مورننج الجماعية · وحتى فى مباريات المنطقة كان دائما بين الفائزين الاول ، وفى ذات مرة أرسل الى أنادير ليشترك فى مباراة اقليمية ولكن رجال المزرعة الجماعية ، ولاسيما أعضاء مجلس ادارتها لم يكونوا ، على نحو ما ، يهتمون كثيرا بهذا الامر ·

صحيح أن كنيرى أخطأ فى مباريات أنادير وجاء ترتيبه الأخير ، من ثم لم يرسل مرة أخرى للاشتراك فى مباريات الشطرنج التى أقيمت بين لاعبى المزارع الجماعية فى مدينة خاباروفسك وقد قال له ايجنتو الفائز ـ الذى كان راعى غزلان فى منطقة آفوى الكبرى ، قبل سفره الى خاباروفسك « انك تستطيع أن تلعب جيدا يا كنيرى · ولكنك لا تعرف شيئا عن منهج اللعب ، ولابد للاعب أن يجيد دراسة المنهج»

ووضع كنيرى البندقية جانبا، ونهض وراح يتلفت حوله: ولاح له أنه غدا الساكن الوحيد على سطح الارض · ولكنه ليس على الارض الآن ، بل على سطح الماء · لاشك أنه سيحمل معه قصة ممتعة ليسردها على عائلته ·

ومرة أخرى التقط بندقيته ، وسرعان ما استغرق فى تفكير عميق ·

ها هو ، حقا ، ذو نفع كبير لعائلته ؟ ان زوجته تيون تكسب فى اليوم ضعف ما يكسبه أى عامل فى المزرعة الجماعية · وان العائلة كلها تعتمد عليها فى معاشها ·انها واحدة من أبرع الخياطات فى المعسكر · ولا تفوقها فى عملها الا العجوز رالتين ·

وحول كنيرى ـ بتفاؤله الطبيعى ـ أفكاره الى زوجته وأبنائه، وبهذا مسح كل آثار اكتئابه الناتج من نقده لنفسه· وشرع يفكر فى زوجته مزهوا وكأنما كان هو ـ وليست رالتين العجوز ـ الذى علمها فن التطريز على الملابس المصنوعة من جلود الرنة ·

وتذكر أبناء التوائم بحنان خاص · أنهم زوجان من التوائم ، وتلك سعادة لم تكن ميسورة لغيره · حقا ان ما حدث كان شيئا تلقائيا ، فلا يحق له أو لينتون أن يزهو

بذلك . ومع ذلك فعندما رزق بالتوأمين الثانيين نشرت نشرت صحيفة المعسكر الخبر ، واستبقى الاطباء تيون فى مستشفى الولادة شهرا كاملا ، لانهم كانوا شديدى القلق على التوأمين ، كما خشوا أن يصابا بنزلة برد عند عودتهما الى البيت . ولما أحضرت الباخرة الأكواخ الخشبية الجاهزة بعد ذلك ، منح كنيرى واحدا منها . وكان توزيع الأكواخ يخضع لنظام دقيق تطبقه لجنة التوزيع بالمنطقة . وكانت المحلة يومذاك مكونة ، فى جملتها ، من المخيمات ولم يكن فيها غير خمس عائلات تتمتع بسكنى المنازل . وكان كنيرى وأبطاله الأربعة من بين هؤلاء المحظوظين .

ترى ماذا يفعل هؤلاء العفاريت الصغار الآن !! ان ايلجيلى وأمريل ـ كوت صارا فى السن التى تجعلهما يفهمان الحزن الذى سيبدو على وجه أمهما ، ويدركان أن شيئا ما قد حدث لأبيهما بل ان الاصغرين قد صارا فى السن التى تؤهلهما لفهم أشياء كثيرة ، اذ بلغا الثالثة من العمر وكانت تيون هى التى أرادت أن تطلق عليهما أسماء روسية تكريما للأطباء الذين أحاطوها بكل رعاية ممكنة ومن ثم سمى أحدهما كوليان « نيكولاى » والآخر ساشا « السكندر » . وكان بين الاطباء واحد يدعى نيكولاى بتروفيتش وهو جراح أول ، وآخر يدعى الكسندر ايفانوفا .

ووافق كنيرى فورا زوجته على أن من الواجب تسمية الطفلين نيكولاى والكسندر ، وقد خطر له الآن ، للمرة الاولى ، أنه ما داما يحملان أسماء روسية ، فلا بد لهما من اسم ثان « لقب » عندما يكبران وعندما ينتهيان من دراستهما الثانوية ليدخلا أحد المعاهد العليا .

لقد كان كنيرى يريد ، بكل تأكيد ، أن يواصل أطفاله تعليمهم . واذا كان ابن آتيك يدرس فى جامعة لننجراد ، فلا بد أن يذهب أطفاله الى لننجراد أيضا يسجلون أسماءهم فى سجلاتها الجامعية السميكة . لقد كتب كنيرى اسمه فى سجل سميك عندما ذهب الى مبساريات أنادير ، ولكنهم لم يسألوه عن لقبه ، لان كل فرد من الاهالى فى تشوكتكا له اسم واحد فقط . ولكن الامر فى لننجراد يختلف . فهناك سيحتاج كل ابن من أبنائه الى اسم ثان . فكيف سيكون هذا الاسم ؟ نيكولاى كنيريفتش ، ما أعذب رنين هذا الاسم ؟ والكسندر كنيريفتش .

ولكن ماذا لو أن كوليا بن يرى أباه مرة أخرى ؟ وعندما يكبر سيقولون له ان أباه كان شخصا تافها كسولا . انك لا تستطيع أن تتاكد مما سيقوله النـــاس عن شخص ما ، لا سيما اذا كان ميتا .

ولم يعد كنيرى يشعر بأى جزع ، لقد كان يفكر على هذا النحو عامدا ، لكى يعبث بنفسه . ذلك أنه كان واثقا ، لسبب ما ، أن زورفابخاريا سوف يظهر سريعا ، بل سريعا جدا .. وما عليه الا أن ينتظر فقط .

ولم يشأ كنيرى أن ينتزع نفسه من هذه الخـــواطر اللطيفة ، ولكن كان عليه أن يمضى ، ويتناول هراوته ويمضى الى طرف الطوف الجليدى . ذلك أن كتلة جليد ضخمة كانت تقترب ، فاذا اصطدمت بطوفه ، فقد تسوء الامور معه الى حد خطير . فان الصدمة قد تحطم الطوف ، ومن ثم عليه أن يقف فى الطرف ويبعد الطوف بهراوته عن الكتلة الجليدية الطافية.

ولم يشعر بسرعة اندفاع الكتلة الجليدية نحـوه الا عندما وصل الى طرف الطوف الجليدى ، ومن ثم وقف بعد أن افسح ما بين قدميه ، وأمسك بهراوته مصوبة الى جرم الكتلة الجليدية . ولكن الهراوة انزلقت على الجرم ، وقبل أن يسترد توازنه ، سقط على الجليد ، ثم اذا هو يسمع صوت ارتطام خفيف .

ووثب كنيرى واقفـــا وتلفت حوله ، رحـدث ما كان يتوقعه ، فقد رأى الطوف الجليدى قـد انقسم الى نصفين ، وكانت بندقيته وحقيبة صيده فى النصف الآخر . ولما وثب ليقطع الفتحة بينهما ، سقط ، ولكنه تمالك نفسه ، وأمسك بالاثنتين : البندقية والحقيبة ، الا أنه لم يستطـع أن يقرر الوثب عائدا الى حيث ترك الهراوة ولحم الفقمتين ، وأسوأ من هذا أنه وجد النصف الذى تركه أكبر ، ومع مرور كل لحظة كانت الفجوة تتسع ، واصبح أمام كنيرى الآن ممر مائى قاتم اللون . ولو أنه رأى هذه الفتحة فى أول الامر ، لما وجد فى نفسه الشجاعة للقفزة الاولى ، رغم أنها لم تكن عندئذ على مثل هذا الاتساع . اذن لقد أحسن صنعا حين قفز دون أن ينظر الى أسفل . وأسرع كنيرى وفك الحبل المنتهى بخطاف والقى به عفوا . وتعلق الخطاف بأحد النتوءات على النصف الآخر ، وتوتر الحبل الى حد شديد .

لو أنه انقطع الآن ، لضاع كنيرى ، لانه ماكان ليستطيع

أن يفعل شيئا بدون خطاطيفه • وان بندقيته ستكون بلا جدوى ، لانه حتى لو أصاب فقمة فى مقتل ، لعجز عن سحبها بدون خطاف •

وأخذ الحبل المشدود يحز فى يديه ، وجف حلقه من فرط التوتر وسرت الرعدة فى كل جسمه ولكن الفتحة المائية القائمة توقفت عن الاتساع ، وتوقف نصف الطوف الجليدى عن الابتعاد • نعم •• توقف هذا النصف كأنما يفكر فى الخطوة التالية ، ثم بدأ فى الاقتراب تدريجيا ، وهكذا خف ضغط الحبل على يديه فى النهاية •

ولما ضاقت الفتحة بين النصفين ، اجتازها كنيرى بسهولة ، وبعد أن تأكد من وجود لحم الفقمتين فى مكانه ، حمل بندقيته وقذف بحقيبة الصيد ، ثم سقط من فرط الارهاق • ولما شعر بجفاف فمه ، استدار الى بركة الماء العذب ليلاحظ أن الجليد انقسم عندها تماما ، وهكذا ضاعت بركته العذبة الحبيبة •• جرى ماؤها العذب الى البحر ، واختفى أيضا رصيد الثلج الذى جمعه للطوارىء •

ولم يبق من مملكة ـ كنيرى الجليدية الا قطعة صغيرة •• قطعة صغيرة لا تزيد عن نصف ما كان يمتلكه قبل ساعة واحدة ، ولا يمكن أن تقاوم الذوبان أكثر من يومين مشمسين•

وفى اليوم الثالث دخل كنيرى بحر تشوكتسك ، ولم يعد للشاطىء أثر على مرمى النظر • وكان يخيل اليه أحيانا أن الحقول الثلجية البعيدة عند الافق ، هى خط الشاطىء ، ولكنه لا يلبث أن يتبين أنها أطواف جليدية حملها التيار القوى الى عرض البحر •

وكانت السماء أكثر صفاء من اليوم السابق ، وكانت تلك علامة سيئة جعلت كنيرى يقول لنفسه « يجب أن أغير معسكرى ، وفى أسرع وقت ممكن » •

وقرر أن ينتقل الى طوف جليدى أحسن فى أول فرصة ممكنة ، وذلك بعد أن جرب عملية الانتقال ولكنه ظل طيلة النهار ، وكأنما أراد القدر أن يسخر منه ، دون أن يرى فيما حوله طوفا جليديا صالحا للانتقال اليه •

وتناول كنيرى وجبة كبيرة من الطعام ، ولكنه لم يلبث أن ندم عليها بعد ذلك • لأنه ما كاد أن يملأ معدته باسراف حتى بدأ يشعر بالظمأ الشديد

وفى ذات مرة سمع من بعيد زئير فقمة ، فقال لنفسه

« لقد كان انبنير على حق ·· لقد بدأت القفمات في الزئير حقا ·· ترى كيف أمكنه أن يسمعها قبل أى فرد آخر ! انه دائما يسمعها قبل الجميع فى الربيع ، ولهذا كان معسكره يستعد لرحلات الصيد قبل غيره من المعسكرات ·

وتحولت أفكار كنيرى مرة أخرى الى المحلة ، ولكنها ـ أى أفكاره ، كانت أقل تفاؤلا منها فى الليلة الماضية · انه لم يعد واثقا من نهاية سعيدة · وعاد مرة أخرى يفكر فى سمعته السيئة ، وفى المخاوف التى بدت بالامس لا أساس لها ومن ثم تحرر منها بسرعة · انهم طبعا سيبحثون عنه ولكن المشكلة هى : كيف سيبحثون ؟ لو أن انبنير ترأس فريق الباحثين ، أو نتوفجى ، أو فاميش نفسه لكان العثور عليه قد تم منذ مدة طويلة · انهم ما كانوا ليراسلون قاربا بخاريا واحدا ، وانما جميع القوارب البخارية وغيرها من الاطواف التى تمتلكها المزرعة الجماعية ·

وللمرة الاولى منذ انفصلت القطعة الجليدية به عن الشاطىء ، خامر كنيرى بقوة عارمة الاحساس بالعزلة التامة ، ولعلها أول مرة فى حياته يشعر فيها بمثل هذا الاحساس ·

وعند الظهيرة ، اقتربت منه قطعة جليدية لا بأس بها ، محاطة بمجموعة صغيرة من القطع الجليدية الاخرى ، حتى غدت على بعد عشرين مترا منه · وقذف خطافه الى الطوف الجليدى الكبير وشد الحبل بقوة ، ولكن القطع الجليدية المحيطة به ، منعته من الاقتراب من طوفه الصغير بما فيه الكفاية · وعبثا حاول أن يبعدها بهراوته · اذ كان كلما أبعد قطعة منها ، اندفعت الى مكانها قطعتان أو ثلاث ·

ولكن كنيرى لم يرغب فى التخلى عن هذه الفكرة ، اذا كان هناك بعض الثلوج فوق الطوف الجليدى الآخر ، وهذا يعنى توافر الماء العذب الذى أصبح من أهم ضروريات حياته فى تلك اللحظة ، بل انه صار أكثر ضرورة من رغبته الملحة فى الانتقال الى طوف أكبر مما يقف عليه الآن ـ هذا الطوف البائس الذى لن يلبث أن يذوب فى خلال يوم آخر تنم شمسه على أنها ستظل ساطعة ·

وكان هناك قطعة أو اثنتان بين القطع الصغيرة ، يبدو أنهما تصلحان للوقوف عليهما واتخاذهما جسرا الى الطوف الكبير ، ورغم ما فى هذا الاجراء من خطر ، فقد قرر كنيرى أن يجازف بالعبور عليهما اذ لم يكن هناك طريق آخر ،

وبحركة عارمة من ذراعه ، قذف بحقيبة الصيد الى الطوف الجديد ، ثم علق بندقيته الى كتفه ، وربط الحبل حول وسطه ، قائلا لنفسه « لسوف أترك لحم الفقمتين هنا فى الوقت الحاضر ويمكننى احضاره وأنا هناك » .

وبعد أن اختبر بهراوته أقرب القطع الثلجية اليه ، خطا فوقها ، ومنها الى قطعة أخرى ، ثم الى ثالثة ، حتى اذا أصبح قريبا من بغيته انزلقت قدمه وسقط على ركبتيه ، ومالت قطعة الثلج بعنف ، واذا هو يسقط فى الماء . واضطرب فى الماء البارد ، وحاول أن يتشبث بقطعة الثلج الكبيرة ، ولكن بندقيته وملابسه الثقيلة المبللة أخذت تغوص به ، واختفى رأسه تحت الماء بضع مرات . وفى مرة منها ظل مختفيا مدة طويلة بحيث لاح كأن الامواج أطبقت عليه الى الابد . الا أنه طفا مرة أخرى وهو يبصق الماء الاجاج ، وراح يبذل ما تبقى من قواه ليبقى سابحا .

واحتكت يده مصادفة بحبل الخطاف الذى كان لا يزال مربوطا حول خصره ، وكان قد نسى أمره الا أنه سحب يده فى أول الامر خوفا من أن تشتبك فيه ، ثم اذا هو يدرك عندئذ فقط أن الحبل يمكن أن ينقذه ، ومن ثم راح يشق على نفسه بالسباحة ليقترب من الطوف الجليدى الجديد ، ولكنه غاص مرة أخرى تحت سطح الماء ، ومع ذلك فقد ظل يدفع نفسه نحو الحافة .

وأخيرا زحف عليها ورقد فوق الجليد يلهث . وشرعت المياه تنساب من فمه وأنفه وأذنيه ، كما شعر هو بصداع رهيب . وكانت الخدوش الناشئة من الثلج المكسر قد ملأت يديه ووجهه ، فأخذت الدماء تنساب منها بلا توقف .

ولما استرد أنفاسه بعض الشىء ، زحف بضعة أقدام وراح يلعق بنهم الثلج الملقى على أرضية الجليد ، ثم استدار ورقد على ظهره التماسا للقليل من الراحة ، ولكن بلل ملابسه جاله يشعر بالبرد الشديد ، فنهض وخلعها عنه .

وراح يدلك جسمه المتجمد بالثلج ، وسرعان ما شعر بالدفء يسرى فيه . ثم فك الحبل من الخطاف الغائص فى الجليد ، وشده بين نتوئين ، ونشر عليه ملابسه ، ولكن ثقلها جعل الحبل يتراخى ويسقط .

وتلفت حوله باحثا عن الهراوة ، فوجدها ملقاة على

احدى قطع الثلج الطافية حول الطوف الجليدى ولكنه استطاع ، لقربها ، أن يستردها وأن يتخذها مدقا لعصر المياه من ملابسه . وليت زوجته تيون ترى كيف يجيد عمل كل شيء ، وكأنه ربة بيت مدربة .

وفى تلك اللحظة فقط تذكر لحم الفقمتين الملقى على الطوف الجليدى المهجور . وفيما هو يهم بفك حبال الخطاف، رأى أن أطولها لن يصل الى الطوف القديم الذى كان قد ابتعد بسبب التيار حتى أصبح على مسافة تزيد عن مائة متر .

ولم يهتم كنيرى بما حدث الى حد كبير . لقد كانت لديه ذخيرة من الرصاص ، وفى مقدوره ، من ثم ، أن يحصل على الطعام . وقد لاحظ مرات عديدة فى اليوم السابق بعض الفقمات تبرز بحيازيمها المستديرة فوق الماء . ولم يشأ فى ذلك الحين أن يصيدها ، لانه كان يمتلك لحم الفقمتين .

وجلس كنيرى على حقيبة الصيد ، وطوى ركبتيه بشدة تحته ، وراح يفظف بندقيته باعتمام كبير . وادفأته الشمس ، ولكن عندما غابت وراء كتلة سحاب ، ازداد الهواء برودة ، فراح يقوم ببعض ألعاب القوى التى لم يكن لها مثيل فى أى كتاب خاص بهذه الالعاب .

وسرعان ما جففت الشمس ونسائم البحر ملابسه . فلما ارتداها جلس على حافة الطرف والبندقية فى يده وراح ينتظر الفقمات

وما أشد الفرق بينه الآن ، وبينه عندما كان لا يحمل للدنيا هما ، ان ملابسه الآن ممزقة ومكمشة ، ووجهه الذى غدا نحيلا ، ملىء بالخدوش والكدمات .

انه يجلس على حافة الطوف الجليدى ، تماما كما جلس قبل يومين على حافة الشاطىء الجليدى وأخذ يمد عينيه على سطح الماء بحثا عن آثار للفقمات . وقد لمحها مرتين ، ولكنها كانت بعيدة وكان هو قد قرر ألا يطلق بندقيته الا اذا تأكد من اصابة الهدف .

ولما رفع عينيه الى السحاب الخفيف ، شعر كأن طوفه الجليدى يسبح أيضا فى الجو ، ويتأرجح خفيفا على أجنحة النسيم .

وكان السكون العميق مخيما بحيث يمكن للانسان أن

يسمع من بعيد اية همهمة خفيفة وبين الحين والآخر كانت قطعة من الجليد تنفصل من أحد الاطواف الجليدية وتسقط فى المـــاء محدثة صوتا كالطشيش ثم يخيم السكون مرة أخرى ٠

وفجاة سمع كنيرى زفيفا خافتا رتيبا ٠ ترى هل هو يحلم ؟ ان الزفيف البعيد يزداد ارتفاعا ووضوحا ، ومن ثم قال لنفسه « انه قارب بخارى » ثم وثب واقفـــا وراح يمد البصر الى سطح البحر آملا أن يرى قاربا بين الامواج ٠

ورغم أن كنيرى لم ير اثرا لقارب ، الا أنه كان واثقا من سماعه زفيف محرك ما ٠ ولما رفع عينيه الى السماء فى لهفة ، لم يلبث أن رأى طائرة فى الافق البعيد ٠ ترى أيمكن أن تمر فوقه دون أن يرى قائدها رجلا واقفا فـــوق طوف جليدى ؟

وامسك بندقيته واطلقها مرتين ٠ وابتعدت الطـائرة قليلا ، ثم استدارت نحوه ، ومن ثم هتف كنيرى مبتهجا :

ـ لقد سمعنى ٠٠ سمعنى

ولكن الطائرة ، مع هذا ، لم تزدد اقترابا ٠ لقد طارت مسـافة قصيرة ، ثم استدارت مرة اخرى واخذت تحوم وتدور على ارتفاع قليل ، وادرك كنيرى أنها أرسلت للبحث عنه ٠

وعاد يطلق بندقيته مرة اخرى ، لا للاستغاثة ، وانما تحية للطائرة ٠ وشعر انه لم يعـــد قادرا على انتظار رؤية الطيـــار له ، فقد كان يتوفز بالفرحة وكانت اللهفة تستبد بيده التى تعيد حشو البندقية ، ودفعه الخوف من أن يخطىء الطيار رؤيته ، الى اطلاق البندقية المرة بعـــد الاخرى حتى نفذت ذخيرته ٠

وألقى بالبندقية من يده ، وشرع يجرى حول الجليد ، وكان يبدو للرائى أنه رجل فقد عقله ، ولكنه كان مدفوعا الى هذا بحافز ينم عن الذكاء وحسن التقدير ٠ لقد هداه التفكير الى أنه من العسير رؤية رجل من بعيد وهو واقف لايتحرك ، بينما تسهل رؤيته اذا ظل متحركا ٠

الا انه ، مع هذا ، سرعان ما توقف حين رأى الطائرة تبتعد ، وظل يشيعها بنظراته مدة طويلة ٠

انه الآن يستطيع أن يحـدد موقفه ٠٠ لقـــد أخطأته

الطائرة ، ولم يعد لديه رصاصات للبندقية كما لم يعد لديه طعام ، ولا وسائل الحصول عليه .

ومع هذا فان موقفه لم يبد ميئوسا منه تماما ذلك أنه كان لا يزال يشعر منذ الصباح بلذة النصر لنجاحه فى الخروج من الماء الى هذا الطوف الجليدى الجديد يضاف الى هذا يقينه بأنهم بدأوا البحث عنه بمعونة الطائرات . ومادام الامر كذلك فلا بد أن يعثروا عليه .

ما الداعى اذن لليأس ؟ ان الطوف الجليدى كبير ، أكبر كثيرا من هذه الكسرة الجليدية التى كان عليها فى ذلك الصباح ، وان لديه الكثير من قطع الثلج فضلا عن ثلاث برك صغيرة من الماء العذب . وما دام قادرا على اطفاء ظمأه ، فانه يستطيع أن يعيش بلا طعام فترة لا بأس بها وان الصبر من أهم صفات الصياد البارع .

وهناك احتمال فى عودة كسرة الجليد التى تحمل لحم الفقمتين اليه مرة أخرى . وان هذا الامل ليداعب أعماق نفس كنيرى . وان كسرة الجليد لا تزال طافيا على الماء ، ولا يزال هو قادرا على رؤية لحم الفقمتين فوقها . ان التيار الذى حملها بعيدا قد يردها اليه ، فاذا اقتربت فى نطاق خطافه ، فانه لن يخطىء الهدف .

ولم يكن هناك ما يدعو بطبيعة الحال ـ الى أن يترك لحم الفقمتين على كسرة الجليد اذ أدرك الآن أنه كان فى مقدوره أن يقطع اللحم ويقذف به الى هذا الطوف الجليدى الجديد كما فعل بحقيبة الصيد . وأيا كان الامر فقد كان من الواجب عليه أن يضع بعض اللحم فى الحقيبة ، ولكن مثل هذا الاحتياط البسيط لم يخطر بباله عندئذ . ولكن لاعجب ، فقد كانت لديه اثنتا عشرة رصاصة فى ذلك الحين .

وحاول كنيرى الا يفكر فى الطعام ، بل رأى أن عليه أن يقنع نفسه بألا يشعر بالجوع ، لقد تناول فعلا وجبة فى ذلك الصباح . وجبة كبيرة أيضا . ولو كان لحم الفقمتين بجانبه الآن لما فكر فى تناول شىء منه فورا .

ولما رأى كنيرى أن هذه الخواطر لا تؤثر على معدته ، قرر أن يلجأ الى وسائل أخرى ومن ثم شرب بعض الماء من البركة وشد الحزام على بطنه .

وحين اقترب اليوم من نهايته ، تكاثفت السحب ،

واضطرب الجو ، وشرعت هبـــات من الرياح تعبث بسطح الماء .

ولم يغتبط كنيرى بسوء الجو عندئذ . لان هذا قد يعنى أن يتخلى الطيار عن البحث بل لعله يخشى القيام بجولة أخرى بسبب سوء الاحوال الجوية .

وراح كنيرى يحملق فى سطح المـاء بلا رضى . وقال لنفسه باكتئاب « انه يشـــبه بطن رجل عجـــوز ، وكانت الغضون والتموجات على سطح المـــاء تتحول طيلة الوقت ، تدريجيـــا ، الى أمواج غاضبة هادرة يعلوها الزبد . حتى أمست أبعد ما تكون شبهـــا بتلك التموجات الرقيقة التى كانت تلعق أطراف الطوف الجليدى طيلة اليوم .

ومزقت الرياح جانبا من السحب ، وأبانت أن الشمس لم تكن قد غربت بعد . ورأى كنيرى عند الافق خيطا رفيعا من الدخان المتصاعد من باخرة . وكان الدخان يتحرك ببطء من الشرق الى الغرب . ولكنه كان على مسافة بعيدة ، أبعد من أن يصل اليها أقوى طلق نارى . بل ان أقوى المنـــاظير المقربة ما كانت لتكشف عنه من هناك . ذلك أن معـــارج البحر كانت واسعة ، بحيث يمكن لعشرات من البواخر أن تمر ببحر تشوكتسك دون أن تقترب احداها من كنيرى .

وازداد المـــوج اضـــطرابا بحيث راح يقلب الاطواف الجليدية الصغيرة ويضرب بعضها بالبعض ويحطمها الى قطع صغيرة . ولم يستطع كنيرى أن يحرك عينيه عن كسرة الطوف الجليدى الذى تحمل لحم الفقمتين . وكان يراها لحظة طافية بميل شديد ، وفى اللحظةالتالية رآها وهى تصطدم بأطواف جليدية أخرى وتتحطم الى قطع صغيرة . واربعد بشدة وهو يتخيل مصيره لو أنه ظل واقفا فوقها .

وبلغ من تعبه الشديد . ومما عاناه طيلة اليوم بحيث لم يعد قادرا على التحرك بسرعة ، أو راغبـــا فى مزيد من التفكير . ورغم أنه لا يكاد يقـــوى على الوقـــوف من فرط الارهاق ، فقد أصر على أن ينصب علما قبل أن يرقد . ذلك أن العلم سيميز الطوف الجليدى ، وربما جعله مرئيا حتى اذا استغرق هو فى النوم .

وخلع قميصه وربطه فى الهراوة التى ثبتهـــا فى أحد النتوءات بالخطاف والحبل وبهذا سيكون العلم مرئيـــا من بعيد ، وفى ذلك عزاؤه عن الشعور بالبرد وهو بلا قميص .

وكانت الامواج حتى ذلك الوقت اضعف من الطـــوف الجليدى الذى كان أكبر منها ، فضلا عن تدعيمه بالقطـــع الثلجيـــة الكثيرة المحيطة بأطرافه ، والتى كانت تخفف من ارتطام الامواج بها · ولكن الطوف كان ، مع هذا كله، يتأرجح باشد مما كان يفعل طوال اليوم ·

وربط كنيرى نفسه بالحبل الى النتوء الذى قرر أن ينام بجواره حتى لا يتدحرج ويسقط فى الماء وكان يفعل هذا بطريقة لا شعورية ، وبيدين صعيفتين متخاذلتين · وشعر بنفسه يروح فى سبات النوم حتى قبـــل أن يفرغ من شد العقدة · ولكنه قاوم النوم وشد العقدة وهو يهمهم لنفسه « الآن استطيع ان أنام » وسرعان ما استغرق فى نوم عميق · · عميق كالبحر نفسه ·

ولم تعد الاصوات تنفذ الى مشاعره ، ولم يكن صوت ارتطام الامواج بالطوف الجليدى يصل الى سمعيه أكثر مما لو كان راقدا فى أعماق البحر · وبدا كأنما لا يوجد شىء يمكن أن يوقظه ·

لاشىء الا الطنين الرتيب الذى سمعه فى اليوم السابق·

وظن كنيرى فى أول الامر أنه حلم ، ولم يشأ ان يفتح عينيه خوفا من أن يختفى الطنين ·

وبدأت الشمس الساطعة ترتفع من الأفق ، وأدرك هو أنه لم يكن قد نام أكثر من نصف ساعة ، الا أنه شعر بقواه ارتدت اليه ، ولعل ان يكون الفضل فى هـــذا لا يرجع الى النوم ، وانمـــا الى ذلك الطنين الرتيب الذى كان وقعه فى سمعيه أعذب من النغم ·

ورأى طائرة تحوم فوق الطوف الجليدى بعـــد أن لمح قائدها العلم من مسافة بعيدة ، وأدرك ـ من ثم ـ أن هناك رجلا يرقد تحت النتوء · ونهض كنيرى وبدأ يفك الحبل عن وسطه ، ثم وثب واقفا ولوح بيديه ·

واستدارت الطائرة واندفعت رأسا فى اتجـاه الطوف الجليدى ، وكانت تطير على انخفاض بحيث يظن الناظر أنها قد تحاول الهبوط ·

وقال كنيرى لنفسه متعجبا « ان الطيار لا يزمع قطعا ان يهبط» وخيل اليه أن الطائرة تنطلق رأسا نحوه ، فأخفض رأسه لا ارديا · ورغم أنه لم يكن يعرف الكثير عن الطيران ،

الا انه أدرك استحالة هبوط طائرة على طوف جليدى كهذا · وكان من حسن الحظ أن العاصفة لم تنطلق من عقالها ، ومن ثم هدأت ثورة البحر الى حد كبير ، ولكن الطوف الجليدى كان يتأرجح بانتظام ولكنه على أية حال لم يكن يصلح ـ لصغر مساحته ـ مهبطا للطائرة ، كما أن سطحه لم يكن مستويا ·

وأيا كان الامر ، فقد كانت الطائرة تزداد اقترابا ، ولم يعد الصوت الصادر منها مجرد طنين رتيب ، وانما هدير يزداد عنفا فى كل ثانية · ولما عجز كنيرى عن احتماله ، سقط على الارض وطمر رأسه بيديه ، وفيما هو يسقط ، لاحظ شيئا يتدلى من الطائرة ·

وابتعد الهدير بنفس السرعة التى اقترب بها · ولما رفع كنيرى رأسه رأى لفافة محكمة ملقاة بين نتوئين · وما كاد يبدأ فى فض اللفافة حتى لاحظ أن الطائرة عادت تقترب مرة أخرى من الطوف الجليدى · وكان فى مقدوره أن يرى الطيار بوضوح ، ومن ثم راح يلوح له باسما ، بيده اليمنى ، دون أن يرفع يده اليسرى عن اللفافة ·

ومرة أخرى سقط شىء من الطائرة · وكانت لفافة ثانية ، الا أنها لم تلق بالدقة اللازمة لانها تواثبت عدة مرات ثم سقطت فى الماء · وأسرع كنيرى الى حبل الخطاف ، الذى كان وسيلته الوحيدة لاسترداد اللفافة ، ولكن العقدة كانت محكمة ، فلم يستطع أن يفكها فورا ·

وفى خلال هذا كله ، كانت الطائرة تحوم حول الطوف الجليدى دون أن تبدأ فى الارتفاع الا بعد أن استطاع كنيرى أن يسترد اللفافة الثانية من الماء ·

وقبل أن تبتعد ، مالت بجناحيها ثلاث مرات ، فأدرك كنيرى أن الطيار يحييه ، وقال لنفسه « لا شك أن هذه تحية الطيارين للغير » وللرد عليها رفع ذراعيه وانحنى بجسمه ثلاث مرات ·

وكانت اللفافتان مليئتين بالاشياء التى يحلم بها الرجل المنعزل عن الدنيا ، فوق طوف جليدى · كان فيهما طعام وملابس صوفية وحقيبة للاسعافات الأولية ، وخيمة صغيرة ، ومشعل كهربائى وبطاريتان احتياطيتان · وأخذ كنيرى يفحص كل شىء من هذا كله على حدة ، وبلغ من فرط سروره أن راح يصفر ابتهاجا ··

وسرعان ما كان موقد بريمسوس يلز في مرح داخل الخيمة ، بينما رقد كنيرى داخل كيس النوم يدخن وينتظر غليان الماء للشاى • انه لم يعد راغبا فى الطعام بعد أن التهم كميـة من البسكويت وقطعتين من الشيكولاته أثنـاء فض اللفافتين •

وكان بين جميع الاشياء فى اللفافتين ، شيء واحد أثار انتباهه الى حد كبير لانه لم يستطع أن يعرف الغرض منه • وكان عبارة عن عصا قصيرة من مادة صلبة وخفيفة فى ذات الوقت لم يكن رآها من قبل • وكانت مجوفة وتبدو كالأنبوبة الا أنه لم يستطع أن يفتحها رغم كل ما بذل من محاولات • وبعد أن شرب كفايته من الشـاى ، وداعب مرة أخرى تلك الانبوبة العجيبة ، اندس فى كيس النـوم واستغرق فيه فورا • وللمرة الاولى ، نام بضع ساعات متتالية

ولما استيقظ ، غادر الخيمة وتفحص سطح البـحر بنظراته ، ثم رنا الى السماء ، والى الافق • وكانت الشمس مرتفعة فى سماء صافية ، والبحر ساجيا • ورأى طائرا رمادى اللون يتواثب على الطوف الجليدى وينقر كسرات البسكويت، ولكنه لم يلبث أن طار عند رؤيته لكنيرى • ثم حط فوق الماء على مسافة غير بعيـدة • وتمشى كنيرى فى جوانب الطوف الجليدى فترة ما ، ينظر الى الشروخ والنقر ، ويفحص أطراف الطوف • وأخيرا اطمأن الى نتيجة هذه الجولة التفتيشية ، وأيقن أن الطـوف متماسك تمـاما • ورغم اطمئنانه الى ما سيحدث بعد ذلك وادراكه بانه لم ينس ، فانه لم يعرف كيف يقتل وقت الفراغ الطويل • وظل يدخل الخيمة ويخرج منهـا ويتفحص الاوراق الملونة الملصقة على علب الطعـام المحفوظ ، ويغير بطاريات المشعل الكهربائى • وراح يضـع المحلول المطهر على خدوشه وكدماته ، بل وضمد يده اليسرى لا لانها كانت أسوأ حالا من اليمنى ، وانما لان الضمادة عليها لن تعوق حركته فى شيء • ومرة أخرى عاد يرنو الى السماء وينصت •• ولكن لا • ان كل شيء ساكن •

لماذا لا يلعب الشـطرنج ؟ ان وجود لاعب آخر ليس ضروريا جدا • لسوف يضع قطع الشطرنج على اللوحة تماما كما كانت قبل أن يخسر الدور فى آخر مبارياته مع ايجنتو ، وكانت معظم القطع عندئذ خارج اللوحة ، أى لم يكن عليه الا أن يضع قطعا قليلة •• لسوف يعيد وضعها ويحاول أن يلعب بالطريقة التى أوصاه بها ايجنتو •

واعد لوحة شطرنج ذات مربعات صفراء وبيضاء من الارضية الثلجية وقطع البسكويت المربعة ثم دخل خيمته وصنع قطع الشطرنج بسكينة من صندوق موقد بريموس الكرتوني . ولكنه حين خرج من الخيمة وجد سربا من الطيور تلتهم قطع البسكويت وتفسد بذلك لوحة الشطرنج .

وكان مزاجه رائقا الى حد جعله لا يشعر بالغضب مما حدث . ولا شك أن أطفاله سوف يضحكون حين يخبرهم أن الطيور غلبته في لعبة الشطرنج .

وكان الجو خارج الخيمة في الشمس أدفأ منه داخلها. والقى كنيري سترته على الجليد، واذا بالعصا المعدنية الغامضة تسقط من أحد جيوبها . والتقطها كنيري ، وعندئذ كشفت عن سرها فورا في هذه المرة . وكانت الانبوبة تحتوي على رسالة ، ويبدو أن وقوعها على الارضية الجليدية عز غطاءها الحلزوني وجعله يدور بسهولة في يد كنيري .

وفي لهفة عارمة فض الرسالة التي كانت مكتوبة بسرعة ، ولكن الكلمات كانت مفروءة :

الرفيق كنيري : كنا نبحث عنك منذ ثلاثة أيام لاتفقد الامل ، لسوف ننقذك . كان اهم شيء أن نعثر عليك . وما دمنا قد فعلنا ، فسوف ننقذك . لسوف تجد كل شيء تحتاج اليه في اللفتين ، فاذا لم تسوء الاحوال الجوية ، فسوف نراك غدا . باكشييف

اذن فهكذا الامر . رسالة من الطيار . ولا شك أن الانبوبة سقطت مع اللفافة الاولى عندما كان منبطحا على الارض ، طامرا رأسه بيديه . . ولسوف تجد كل شيء تحتاج اليه في اللفافتين .. نعم .. لقد كان فيهما كل ما يحتاج اليه ، وأكثر جدا مما يحتاج . اذا لم تسوء الاحوال الجوية، ومع ان الاحوال الجوية لم تكن حسنة تماما ، ومع ذلك فقد غامر باكشييف بالحضور .

وازداد كنيري ادراكا بان هناك الكثيرين ممن اهتموا بانقاذه ومرة أخرى فكر في زوجته تيون وهي تهرع حزينة

الى قاميش وأنه في هـــذه المرة ليتخيـل الموقف من زاوية أخرى ·· فلا شـــك أن قاميش قد اشـتد به الجزع وبادر بارسال برقية لاسلكية الى الجهة المسئولة ، فارسلت هذه طائرة للبحث عنه · ولا شك أن أعضاء المزرعة الجماعية قد اعتوا في نفس الوقت زورقا بخاريا عند حافة الجليد ليكونوا على اهبة الاستعداد · ولعل باكشييف قـــد أخبرهم الآن بموقعه ، ولعلهم في هذه اللحظـــة ينطلقون عبر الامواج لينقذوه ·

اشخاص كثـــيرون جدا ·· عامل اللاسلكي ، ومدير المطار ، والطيار ، كل النـــاس الذين لا يعرفونه اطلاقا ـ اصبحوا شديدي القلق عليه · وليس هؤلاء فقط ، آذ لاشك أن الانباء قد وصلت الى أنادير · ومن المحتمل أن تكون فرقة للانقاذ قد انتشرت على طول الشاطىء ·

وشعر كنيري بالضيق · اهو ، مع هذا كله ، بطل ، أم شـــخصية هامة ، انه مجرد عامل تشيوكشي في مزرعة جماعية ·· صياد بل ان شئت الحقيقة كان عاملا خاملا ، وان المأزق الذي وقع فيه من صنع يديه · لقـــد استسلم للنوم عند حافة الماء ، ولم يشعر بالطوف الثلجي عنـــدما تحرك به ·

ولكن انظر الى كثرة الاشياء الثمينة التي اسقطوها له من الطائرة ، ترى هل الامر كله خطأ ؟ هل هو حقا المقصود بكل هذه الاشياء ؟ نعم ·· لقد بدئت الرسالة بهذه الجملة الرفيق كنيري ·· نعم ·· لا يمكن أن يكون هناك خطأ · لقد كتب الطيار باكشييف اسمه بخط يده ·

وأعاد كنيري قراءة الرسالة · وشعر بالبهجة مع كل كلمة ، وبالرغبة في أن يعمل شيئا خاصا للطيار باكشييف لقد كتب الطيار الاسم بنفسه · انه اسم جميل · واذا كان في الامكان أن يختار الانسان اسما ثانيا لاسمة ، فيجب أن أختار هذا الاسم لأحد ابنائي ·· ربما كوليا ·· نيكولاي كينيرفيتش باكشيف ولسوف يكون لهذا الاسم رنين جميل·

وعند مساء اليوم الرابع، تم انقاذ كنيري بواسطة الباخرة

ويلين · وكان ما حدث شيئا يختلف تمـــاما عما تصـــوره كنيرى · لقد كان يتوقع أن يرى زورق الانقاذ من بعيد ، فيلوح له بالعلم تحية لمنقذيه ، ثم يصافح بحرارة فاميش ، وانبينر ، ورنتوفيجي · وكان يتوقع لاسباب خاصة ، أن يكون هؤلاء من بين منقذيه · وكان قد قرر ألا يتحدث عن مغامراته الا اذا سألوه لسوف يجعلهم يرون أنه ليس مدعيا متفاخرا كما كانوا يظنون ·

ولكن الذى حدث كان شيئا مختلفا تمـــاما ، فبدلا من زورق المزرعة الجماعية البخارى ، ظهرت باخرة كبيرة · ولم يلوح كنيرى بعلمه ، لانه كان نائما داخل الخيمة من فرط شعوره بالارهاق من طول الانتظار وأنزلت الباخرة زورقا حمل اثنين من البحارة الى الطرف الجليدى ، ومـــع ذلك لم يستيقظ كنيرى · وشعر البحاران بشيء من القلق ، ولكن عند اقترابهما من الخيمة سمعا غطيطه الذى طرد عنهما كل احساس بالخوف ·